مكتبتى ٤٢

هدية من دار المعارف
إدارة النشر
غير مخصص للبيع

أنت ومالك لأبيك

وقصص أخرى

تأليف : عبد التواب يوسف
رسوم : ماهر عبد القادر

دار المعارف

تصميم الغلاف : **محمد أبو طالب**

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

إعداد الماكيت : أماني والى

- ١ -

عندمَا جاءَ الحفيدُ لزيارةِ بيت جدّه، رغبَ الجدُّ فى أنْ يجلسَ إليه، يسمعُ منه، ويطمئنُّ عليه، لكنَّ الصغيرَ قال:

- أريدُ أنْ أشاهدَ الكرتونَ فى التليفزيون.

لم يشعر الجدُّ بالارتياحِ، وحاولَ أن يخفِى ضيقه، وقال له:

- لكَ هذَا..

قامَ الحفيدُ إلى التليفزيون، وَمَا هى إلاَّ لحظاتٌ وانقطعَ تيَّارُ الكهرباءِ فعادَ الصغيرُ إلى جَدِّه، ليعلنَ ذلك، وليجلسَ بجانبِ جدِّه الصَّامت..

- لماذَا لا تتكلمُ يا جدِّى؟

- أنت كنت تريدُ أن تهربَ منى ومنَ الأشياءِ الحقيقية، إلى تلكَ الصورِ الكرتونيةِ، فأى شىء عندِى أقولُه لك؟

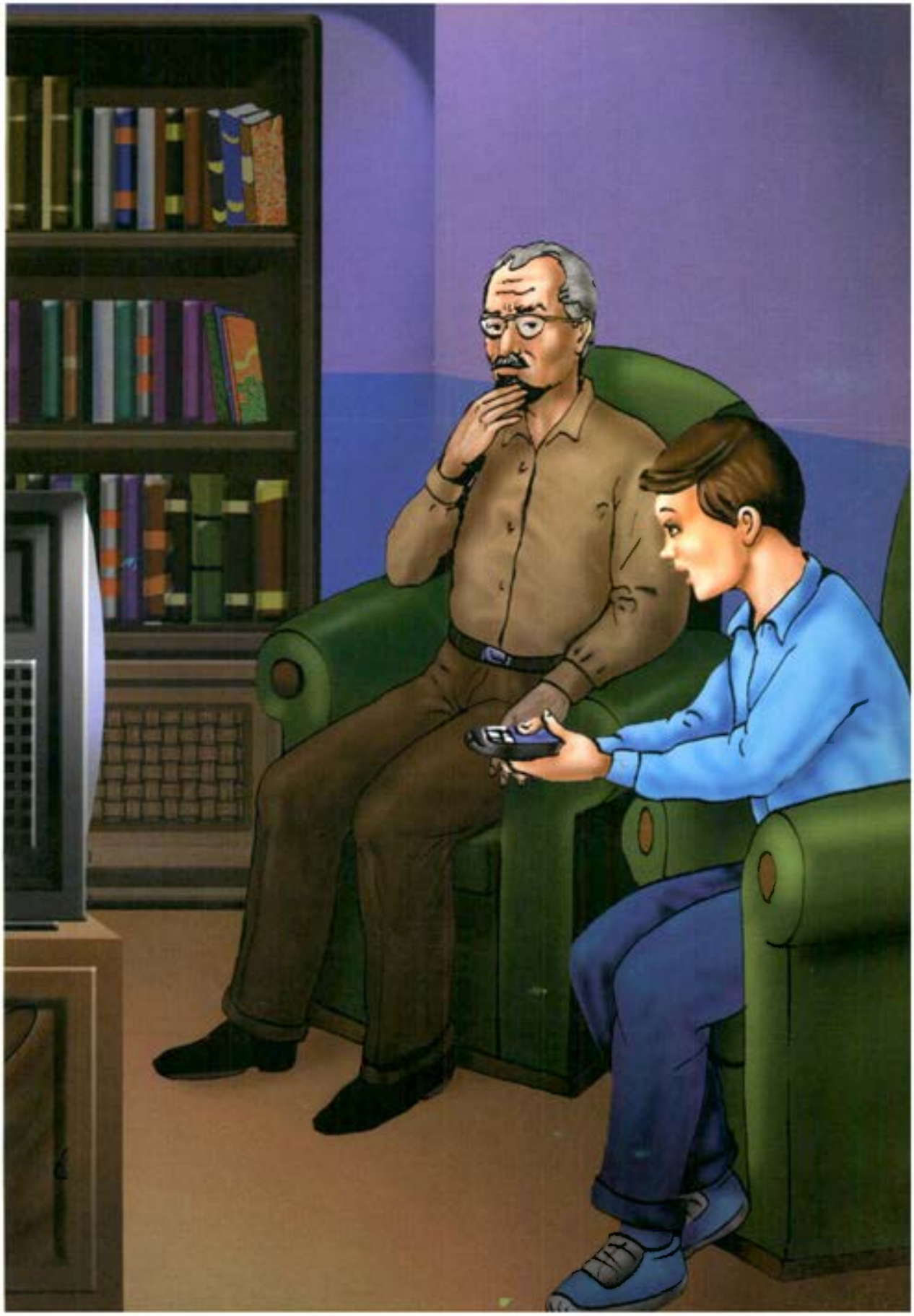

- إنها مُسلِّية ولذيذةٌ، وأنت كثيرًا ما تحكِى لى عنْ أناسٍ وأحداثٍ وتقولُ إنهم عاشُوا قبل نحو ١٤٠٠ سنة!

قال الجدُّ: وما زالوا يعيشونَ يا «يوسف» ..

هتفَ الصغيرُ: نعم؟ مَاذا ؟!

كان فى صوْته استنْكارٌ شديدٌ، فأضافَ الجدُّ:

- يعيشونَ فى عقلِى وقلْبِى.. على الأقل، وأريدُ لهم أن يعيشوا معك، ولك..

ردَّ الحفيدُ: ما مِنْ سبيلٍ إلى ذلك؟

قال الجدُّ: إننى حينَ أرغبُ فى الجلوسِ إليكَ إنما أستجيبُ لتوجيهٍ كريمٍ.. من رسول الله ﷺ حينَ قالَ ما معناه الزمُوا أوْلادَكم. وقبل ألف وأربعمائة عام، جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ يشكُو أباهُ!

- دائما - يا جدى - يشكُو الأبناءُ من الآباءِ..

ابتسم الجدُّ، وفجأةً أضاءَ مصباح الغرفةِ، فقال الجدُّ:

- هاقدْ عادت الكهرباءُ، هل تريدُ أن تذهبَ لكى تشاهدَ الكرتونَ فى التليفزيون؟

- لا.. بل أريدُ الاستماعَ إلى حكايةِ الابن الذى ذهبَ يشكو أباهُ إلى النَّبى ﷺ.. لأنها حَقيقية!

اكتسى وجهُ الجدّ بالرضَا والسُّرور.. وأرادَ الحفيدُ أن يزيدَهُ بهجةً، فأضاف..

- وأنت لا تريدُنى أن أشاهدَ التليفزيون..

- لا.لا.. لا رغبةَ لى فى ذلك، فقط أريدكَ أن تختارَ لنفسكَ الأفضل..

- أنا الآن أفضلُ حكايتكَ..

ضحكَ الجدُّ وقالَ: معَ أنه قد مرَّ عليها ١٤٠٠ سنة؟

- نعم..

- ٢ -

كان الشَّابُّ الذى أرادَ أن يشكو أباهُ إلى الرسول ﷺ منفعلاً، وغاضباً ، وقال:

- إنَّ أبى أخذَ مالى.

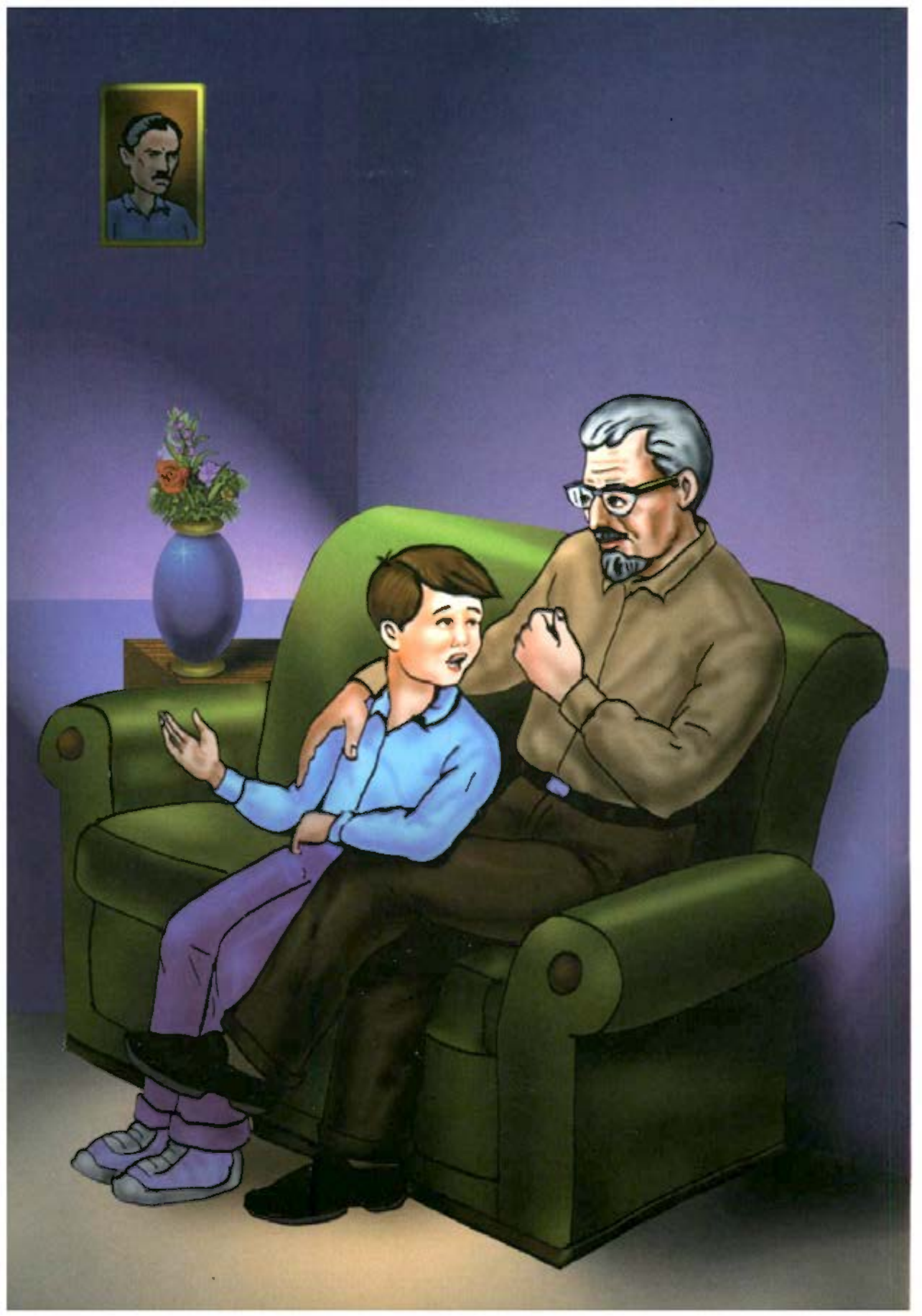

كانَ الرسول ﷺ يحبُّ إذا سمعَ من طرفٍ فى قضيةٍ أن يستمعَ إلى الطرفِ الآخرِ..

قال الصغيرُ: سمعتُ منكَ يا جدِّى حكايةً عن: إذا جاءَ إليكَ رجلٌ أعْوَرُ يشكُو آخرَ فعلَ به ذلك، فلا تحكمْ له، انتظارًا للطرفِ الآخرِ، فقدْ يجىءُ وقدْ فقد عَيْنيه معًا!

ابتسمَ الجدُّ: جميلٌ أنكَ تذكرُ هذه الحكايةَ.. على فكرة هى أيضًا تعودُ إلى نحو ١٤٠٠ سنة!

همسَ الصغيرُ فى خجلٍ: لنعدْ يا جدِّى لحكايةِ الرجلِ وأبيه..

سكت الجدُّ قليلاً قبل أن يواصلَ حَديثَهُ:

- ذهبَ الرجلُ ليأتِىَ بأبيه، وخلالَ ذلك أوحَى الله سبحانه وتعالى إلى الرسول ﷺ، إذ أتاهُ جبريلُ عليه السلام يقولُ: إنَّ الله يُقرئكَ السلامَ، ويقولُ لك: «إذا جاءَ الشيخُ - الأبُ - فاسأله عن شىءٍ قالهُ فى نفسِه ولم تسمعْهُ أذُناه»..

هتفَ الصغيرُ: مَاذا؟ هل هناكَ شىء منْ هَذَا القبيلِ، يقولُه الواحدُ فى نفسِه ولا تسمعُه أذناه؟.

- نعم.. يحدثُ هذا حينَ نفكرُ بصوتٍ غيرِ مسْمُوعٍ..

بعدَ قليل، جاءَ الأب الشيخُ، معَ ابنه الرجل..

قال الحفيدُ : طبعاً سأله الرسول ﷺ إذا كانَ يأخذُ مالَ ابنه؟

- نعم..

- هل فعلاً كان يأخذُ مالَ ابنِه؟!.. هلْ من حقّه هذا؟

همسَ الجدُّ: لا تتعجلْ.. سأل الرسول ﷺ الأب الشيخ بما معناه: ما بالُ ابنك يشكُوك؟ أتريدُ أن تأخذَ ماله؟

- هل أنكرَ؟

- لا، بلْ قالَ: اسأله يا رسولَ الله إن كنتُ أنفقه على نفسي؟

- لقد اعترفَ الرجلُ.

- نعم..

- فيمَ ينفقُهُ؟!

- أضافَ الشيخ: هلْ أنفقه على إحدَى عمَّاتِه أو خالاَته أم أنفقهُ على نفْسي؟!

قال الصغيرُ : آه.. أى أن الشيخَ يأخذُ هذَا المالَ من ابنِه لينفقَهُ على أخواتٍ له، أو أخواتٍ للأم؟

- نعم. وهنا سأله الرسول ﷺ.. عن الشىء الذِى قاله فى نفسِه ولم تسمعْه أذناه..

بالضَّبْط..

- وماذا قال الرجُلُ؟!

- الرجل انبهرَ بالسُّؤالِ وهتفَ: ما زالَ الله سبحانه وتعالى يزيدُكَ بنا يقيناً..

- ٣ -

قال الجدُّ: ذُهِلَ الشيخُ الأبُ عندما طرحَ عليه الرسولُ ﷺ سؤالَه، الذِى أوحَتْ به السَّماءُ، وهتفَ بعبارته هذِه، وأضافَ إليه أنه قالَ فعلاً فى نفسِه وما سمعَتْه أذناه.. قال له الرسول ﷺ ما معناه: قلْ وأنا أسمع..

- ماذَا قالَ الأبُ الشيخُ؟!

- قالَ أبياتًا من الشعر، لا أحفظهَا.. وأحتاجُ إلى أنْ أقرأهَا عليكَ من كتابٍ..

وقامَ الجدُّ إلى واحدٍ من كتبهِ القديمةِ، الصفراءِ بلونِ الذهبِ، وأغلى منه، وأكثر قيمةً، وقال لحفيدِه:

- قد تكون كلماتُ القصيدةِ صعبةً عليك وتحتاجُ منِّى إلى الشرحِ..

- ولماذا لا تلخصهَا بأن تَذْكُرَ فى كلماتٍ بسيطةٍ سهلةٍ ما جاءَ فيها؟

- لأنى أريدُ لكَ أنْ تسمعَهَا.. أريدُ للكلماتِ أن تُصَافحَ أذنيك..

هتفَ الصغيرُ: هذا تعبيرٌ جميلٌ..

أضافَ الجد: لقد سمعها الرسول ﷺ.. ألا تحبُّ أن تسمعهَا أنت؟

- بلْ أحبُّ ذلك وأرِيدُه..

- قالَ الرجل:

غَذَّوْتُكَ مولودًا وعلتكَ يافعًا

تعل بمَا أجنى عليكَ وتنهَلُ

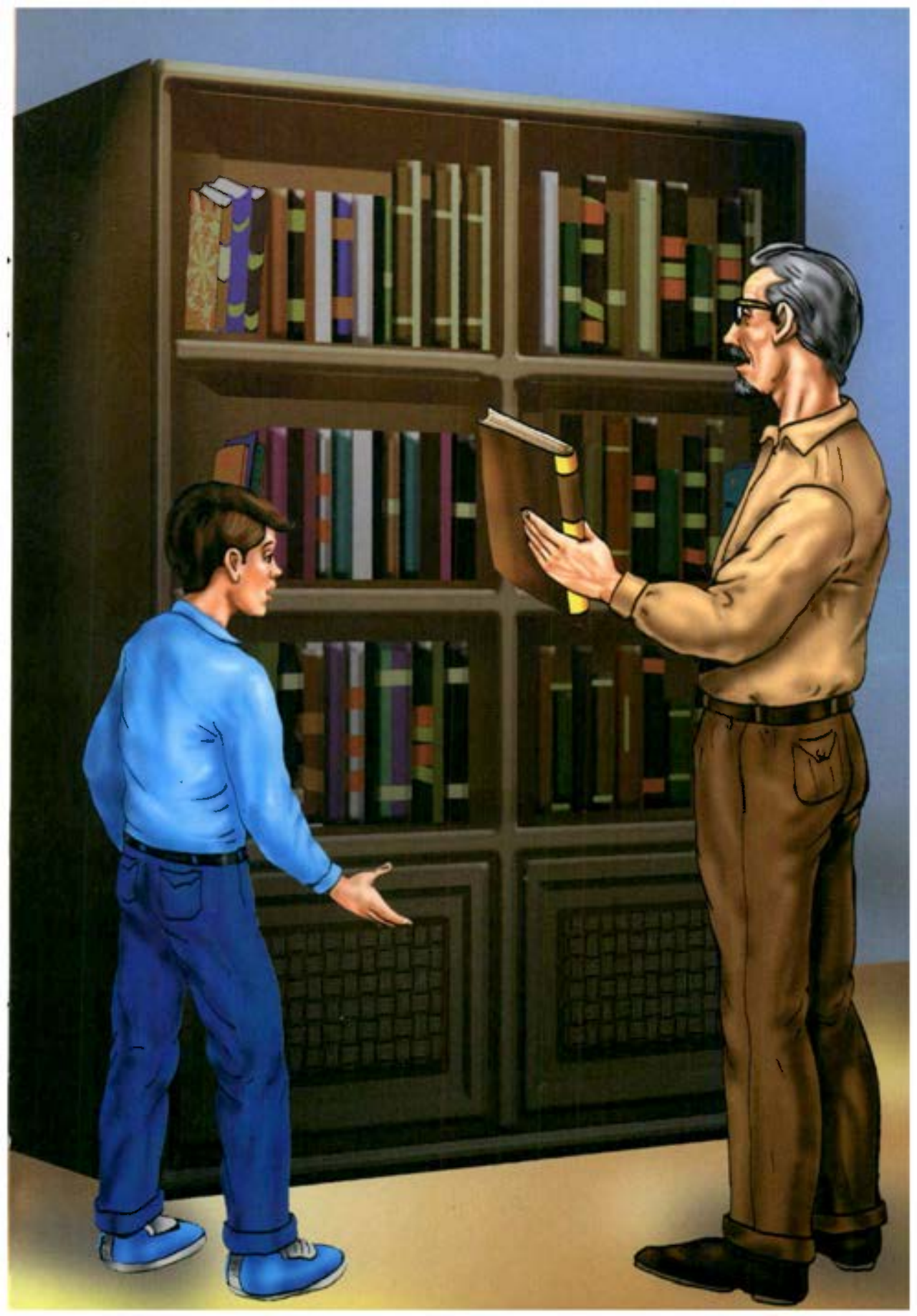

إذا ليلة ضاقتك بالسقمِ لم أبتْ

لســـقمكَ إلاَّ ســـاهرًا أتملمَـــلُ

كأنّى أنا المطـروقُ دونكَ بالذِّى

طرقـــتَ به دونِـــى فعينى تهملُ

تخافُ الـــرَّدَى نفسِى عليكَ وإنها

لتعلـــم أنَّ المـــوتَ وقتٌ مؤجلُ

فلمَّـا بلغـتَ السّنَّ والغايةَ التى

إليهَـا مدَى مـا كنتَ فيـه أؤمّلُ

جعلـــتَ جزائِـــى غلظـــةً وفظاظةً

كأنـــكَ أنـــتَ المنعـــمُ المتفضّلُ

فليتـــكَ إذ لـــمْ تـــرعَ حق أبوّتِى

فعلتَ كما الجـار المصاقِبُ يفعلُ

فأوْليتنِى حـقَّ الجـــوارِ ولـم تكنْ

علـىَّ بمـالٍ دونَ مـــالكَ تبخَـــلُ

- ٤ -

استمعَ يوسفُ إلى جدّه، وهو يقرأ الأبياتَ، وتتبعَ سطورهَا بعينيْه فى الكتابِ، وما أن انتهيا مِنَ القراءةِ حتَّى هتفَ الصغيرُ..

- الله.. هل تسمحُ لى يا جدِّى أن أستنسخَ منها صورةً أحتفظ بهَا، رغمَ صعوبةِ كلماتها؟

ابتسمَ الجدَ، وقالَ فى صوتٍ عاتبٍ..

- أنتم يا أبناءَ هذا الجيل تختارونَ الطريقَ السَّهل..

تطلعَ إليه يوسفُ، وقال..

- ماذا تعْنى يا جدَى؟

- أولُ ما فكرتُ أنتَ فيه أن تصورَ نسخةً مِنْ الأبياتِ، وأنا فى سنكَ كنتُ أفعلُ شيئًا آخرَ..

- ما هُوَ؟

- أنْ أنقلهَا.. فإنَّ كتابتها بخطٍّى فى أنَاةٍ وصبرٍ يجعلُهَا أقربُ إلى نفسى، وأسهلُ وأيسرُ فهمًا..

ضحكَ يوسفُ وقَال: سوْفَ أنقلهَا..

قال الجدُّ: أنت قطعتَ على نفسك سياقَ القصةِ..

هتفَ يوسفُ: آه.. آه.. ماذا قال الرسولُ ﷺ للرجُلِ وأبيه؟!

- قالَ عبارَةً يجبُ أن يقفَ لها تاريخُ الإنسانيةِ إجلالاً وتعظيماً.. إنها عبارةٌ خالدةٌ، عمرها..

وسكتَ الجدّ انتظارًا لأن يكملَ الصغيرُ العبارة، قال:

- نحو ألف وأربعمائة سنة؟

- نعم.. نظر الرسول ﷺ للابن وقال له:

«أنتَ ومالُكَ لأبيكَ».

كرّرَ يوسفُ العبارةَ فى ذُهولٍ، قالها كلمةً كلمةً، وهو يضغط على حُروفها حرفًا حرفًا..

«أنتَ .. ومالُكَ .. لأبيكَ».

وسادَ صمتٌ قصيرٌ، قبلَ أن يعلُو صوتُ يوسفَ مدوِّيًا..

- الله أكبر.. الله أكبر..

كانَ منشغلاً بهتافِه، لذلكَ لمْ يلحظ دمْعَتين سالتا من عيْنى الجدّ، الذى سرعَان ما تمالكَ نفسَه، ولفتَ وَجْهه بعيدًا، حتى لا يراهُ الحفيدُ، وقال للصَّغيرِ..

- فى استطاعتك أنْ تذهبَ لتشاهد فيلم الكرتونِ فى التليفزيون إنْ شئتَ أو رغبتَ فى ذلك..

غادرَ الجدُّ حَفيدَه..

وبقى الصغيرُ فى مقعَدِه، لم يُغادرْهُ.. كان يستعيدُ فى رأسه الحكايةَ مرةً أخرى، من بدَايتها إلى نهايتها.. كانَ يقُولُها لنفسِه، دون أنْ تسمعها أذناه.. وعندمَا ترك مقعدَه كان يردّدُ بصوتٍ مسْموعٍ..

«أنْتَ ومَالُكَ لأبيكَ».

ولم يذهَب لمشاهدةِ الكرْتون فى التليفزيون.

***

«وإذا مرضت ، فهو يشفين»

- ١ -

شعرَ محمود الصغيرُ بالمرضِ، أخذتـه أمه مِنْ يَدِه، وقادتْهُ إلى السرِّير، وأدخلتْهُ فيه، وغطّته وهِيَ تقول..

- حاول أنْ تنامَ..

وضعَ محمود رأسَه على الوسادة، لكنَّ النومَ لمْ يزرْ جَفْنيه.. وسُرعانَ ما ارتفعَ صوتُه ينادِى أمه، التى جاءت لتسأله..

- مَاذَا هنَالك؟

- إننِى أحسَ بوجَعٍ شديدٍ.

- سأعطيكَ الدواءَ الذِى أشار به الطبيبُ.

- لقد تعاطيتُه، ولم يَفِدْنى كثيرًا.

- هو يحتاجُ لبعضِ الوقتِ.

تناول محمود ملعقةَ دواءٍ مُرٍّ، وابتلعَ قرصيْن، وتقلبَ فى فراشِه، وبذل جهدًا منْ أجلِ أن يغمضَ عينيْه، ويروح فى النومِ، إلا أنَّ ذلك استعصَى عليه، ومنْ جديدٍ نادَى أمَّه..

- الصداعُ شديدٌ..

جاءت الأمُّ تحملُ كوبًا من البرتقالِ، قدَّمته إليه، فلم يستطعْ أن يشرْبَهُ.. ورَبطت رأسَه بمنديلٍ، وقالتْ له:

- سوفَ أقرأ لكَ شيئًا جميلاً..

- ٢ -

أتت الأمُّ بالمصحفِ الشَّريف، وفتحتْهُ، وراحَت تتلُو فى صوتٍ هادئٍ عميق، ومحمودُ يعرفُ جيدًا أنه إذا تُلِىَ القرآنُ فإنَّ عليه أن يسمعَ وينصتَ.. قرأت الأم..

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الإسراء: الآيات: ٨٠ - ٨٢)

كانت شفتا محمود تتمتمان بالآياتِ الكريمة، مع تلاوةِ أمه لها.. وما أن أتمت التلاوةَ حتى سألها..

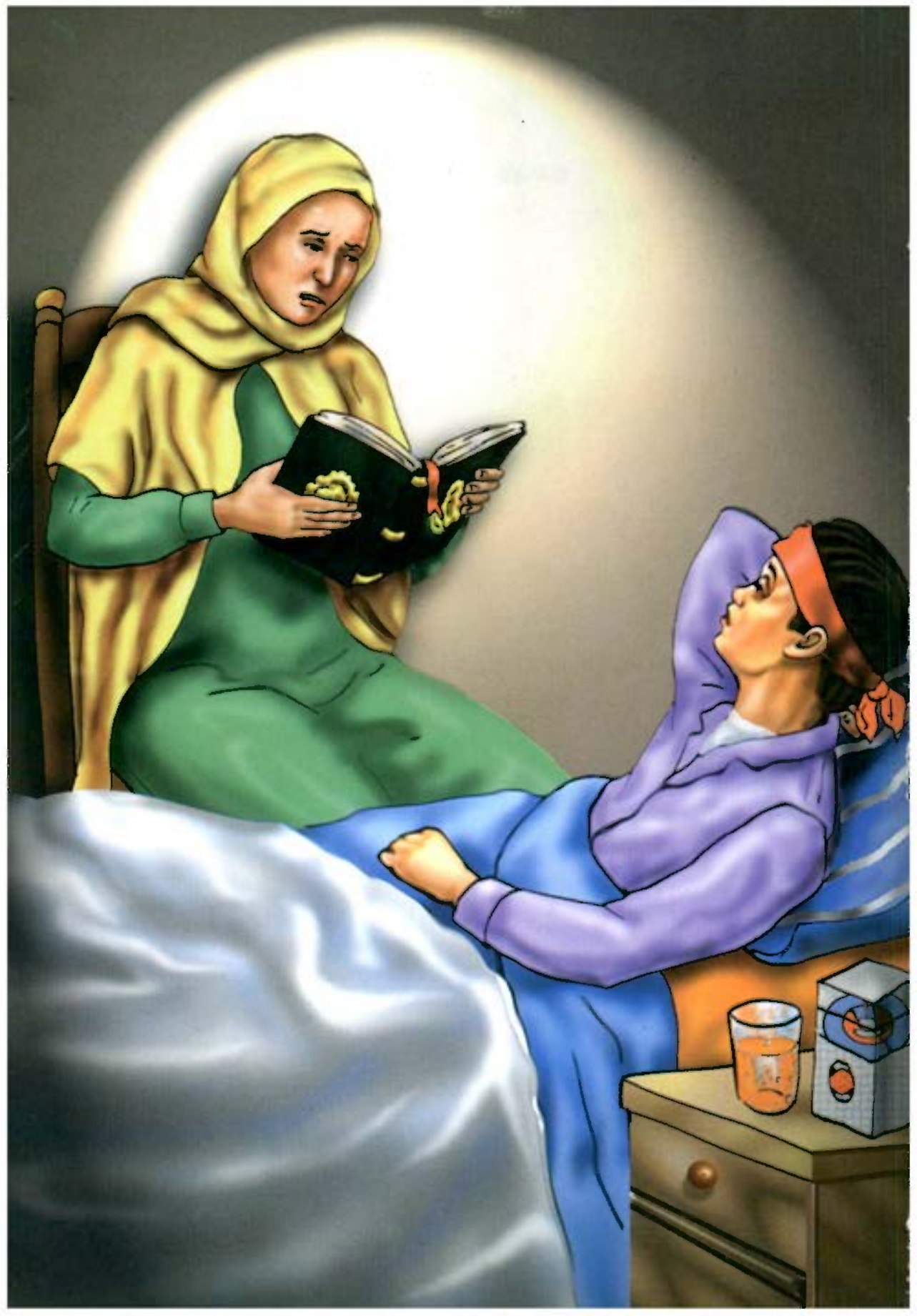

- هلْ فى القرآنِ شفاءُ ؟

- نعم.. شفاءٌ من الكفرِ والعياذُ بالله..

- ومنَ المرضِ؟

- الكفرُ أشدُّ وأفْظعَ..

- اللهم اشْفنى من هذا وذاكَ..

– ٣ –

مرَّت لحظاتٌ صمتٍ، قالت الأم على أثرها..

مرضَ الرسولُ ﷺ يوماً..

أبدَى محمود دهْشته، قالت الأم:

- كانَ الرسول ﷺ بشرًا.. يأكلُ ويشربُ ويمشى فى الأسواقِ.. وهو فى مثلِ سنك كان راعياً للأغنامِ..

وعندما كبِرَ كانَ يعملُ - وهو شاب - فى التجارةِ.. قبل أنْ يتفرغَ للدعوةِ إلى الإسلامِ.. وكانَ إذا مرضَ يتعاطى الدواءَ..

ما الذِى تراهً غريباً فى هذا ؟

- صمتَ محمود، وكان واضحًا أنه كانَ يتصورُ أن الرسولَ ﷺ لا يمرضُ، مثل كلِّ الناس.. أضافت الأم..

- كان الرسولُ ﷺ يعلمُ يقيناً أن الله قدْ خلقَ الداءَ والدَّوَاءَ، لذلك أمرنَا بأنْ نتداوَى.. وأن نَتَّقى المرضَ..

تابعَ محمود كلماتِ أمه، وغفلَ قليلاً عنْ أوجاعه وآلامه.. ونجحت أمه فى أنْ تشغلهُ عمَّا هو فيه، لكنها لحظاتٌ قصيرة وعادَ يتأوَّه ويتألَّم، مما دعَا أمه إلى السكوت، بينما كانَ هو يتمنَّى لو أنها واصلت حديثها، لأنَّ كلماتها تساعدُهُ على نسيانِ ما به.. وراحَت الأم تنتظرُ الفرصةَ لتسوِّى فراشَه وتعيدَ ترتيبَهُ من جديدٍ، وحملت المصحفَ فى يدها، فى اللحظةِ التى كفَّ فيها محمود عنِ الشكْوَى، لذلكَ فتحت كتابَ الله.. وأسند هو ظهرْه للوسادة..

– ٤ –

بدأت الأمُّ تقرأ قولَه تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾
قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ
تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا
كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى
خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾
وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾

صدق الله العظيم

(سورة الشعراء: الآيات: ٦٩ – ٨٠)

كانت الأم تقرأ، وبينَ حينٍ وآخرَ ترفعُ بصرهَا إلى ولدهَا محمود وشفتاهُ تتحركانِ بالكلماتِ من بعدِ تلاوتها لها، فتشعرُ بالارتياحِ.. ومَا أنْ توقفت حتَّى رأت جفْنى محمود ينْطبِقَانِ..

- ٥ -

همستَ الأم: هَلْ نمتَ يا محمود؟

لم تتلقَّ ردًّا.. لأنه كانَ قد راحَ فى نومٍ عميقٍ.. وكانَ واضحًا أنَّ الألمَ قد خفَّ، فرفعَتِ الأم يديْهَا هَاتفة..

- يارب..

ومع الصباح، صحَا محمود، وقد انتهى الألمُ، ونمَّ له الشفاءُ.. واستجابَ الله لدعَائِهِ، ولدعاءِ أمه..

وعند الجلوسِ إلى مائدةِ الإفطارِ، قَالَ لها محمود..

- أليسَ غريباً يا أمى أنَّ الله يشفِى، وأنَّ الطبيبَ يتلقى الأتعابَ وأجرَ العلاجِ؟!

وشاركتْهُ أمهُ الضحكَ..

«هدية العُمرة»

- ١ -

كانت السيدةُ وفاءُ رَبَّةَ بيتٍ نشيطةً، تصحُو فجرًا، وما أن تؤدِّى صلاتها حتى تبدأ عملها كالنحلة، تعد ثيابَ المدرسةِ للأبناءِ، وتجهزُ لهم، وللأب طعامَ الإفطارِ.. وتبدأ فى إعدادِ وجبةِ الغداء، ثم تعيدُ ترتيبَ البيتِ ليستيقظ بقية أفرادِ الأسرة، والبيتُ فى أبهى صورةٍ من النظافةِ والنظام.. وأثناءَ استعدادهم للخروجِ تكونُ هى قد دخلتْ إلى غرفِ النوم تنسقها..

يخرجُ الأبناءُ للمدرسة، والأب لعمله، وترتدِى هى ثيابهَا، وتنطلقُ من ورائهم لتؤدِّى وظيفتها فى المكتبِ على أكملِ وجْه..والطريفُ أنهم عندما يعودون جميعاً إلى البيت، يجدُونها قد سبقتهُمْ إليه، لتستقبلهم،

راجيةً أن يكُونوا قد قضوا يومًا طيّبًا ومُثمرًا.. ويتناولون معا طعامَ الغداء، ويستريحونَ بعدها، بينما هى تغسلُ الأطباقَ.. وبعدها تُوليهم اهتمامها وهم يقومون بما عليهم من واجباتٍ مدرسيَّة.. وأفرادُ الأسرةِ يتساءلون :

- متى تحصلُ «وفاء» على قِسْطها من الرَّاحة؟

إنهم يريدونَ لها أن تهدأ وتستكينَ بعضَ الوقتِ، لكنَّ ذلك لم يكنْ ممكنًا ولا ميْسورًا، إذ ما السبيلُ لكى تستقيمَ الأمورُ، إذا هى لم تقُمْ بكلِّ هذه الأعمالِ والأعباءِ؟

وكان كمالُ زوجها يسألها دائمًا أن تترفَّق بنفسها، كما أن الأبناءَ كانوا يُحَاولون مساعدَتها والتخفيفَ عنها، لكن بَقى الجهدُ كبيرًا والعبءُ ثقيلاً..

وَنَاءَتْ به.. وبدأتْ تحسُّ بالمرضِ يتسللُ إليها، وبالذاتِ إلى أطرافها.. وفى البدايةِ، لم تكن تُلقى بالاً إليه، إلا أنه راحَ يلزمها الفِراشَ بينَ وقتٍ وآخرَ.. وتحاملت على نفسها بقوةٍ، لكى تواصلَ أدوارها فى الحياةِ: رَبّة بيتٍ، وزوجةً، وأمًّا وموظفةً.. وأيضًا كإنسانةٍ، لجسدها ولنفسها عليها حقوقٌ وواجباتٌ.. نسيتها كثيرًا، من أجلِ أنْ تعطىَ الآخرِين، فهى تؤمنُ

بتلكَ الحكمةِ الغاليةِ: «ما استحقَّ أنْ يولدَ من عَاش لنفسه فقط».

كانت تلهثُ صباحَ مساءٍ، ساعيةً علَى قدميْهَا تُعْطى بلاَ كللٍ أو ملَلٍ، ولا تغفلُ عن أمرٍ تحتاجُه أسرتُها: زوجها وأبناؤهَا.. بلْ ولا تنسى أباها وأمها، وأعمامها وعمّاتها، وأخوالها وخَالاتها، وتذكرُ أبناءَهم فى كل مناسبَةٍ، وكأنما سمَّاها أبوها وأمها بهذا الاسم «وفاء» ليكون اسماً على مُسمى، وصفةً راسخةً مِنْ صفاتها.. وما كانت تدْرِى أو تعلمُ بما حدَث لها فى واقعِ الحياةِ.

– ٢ –

شعرت السيدةُ وفاءُ زوجةُ الأستاذ كمال، أنَّ سَاقيها قد أصابهما ضعفٌ كبيرٌ، ووهنٌ شديدٌ، وأنهما لم يعودَا قادريْنِ علَى أن يحملاهَا، إذا ما وقفتْ وحَاولت أنْ تعتمدَ عليهما، فسرعان ما تخذلاهَا، فتسقطُ على الأرض.. وتتحسسهما، فتجدهُمَا كأنمَا هما محشُوَّتان بالقطنِ، أو حبْلان من الدُّوبَارة، متُهافتان.. لذلك آثرتْ أن تبقى قعيدةً على مقعدٍ، يصعبُ عليها الوصُول إليه، فتفضلَ أن تبقى جَالسةً إلى وسَادةٍ على الأرض.. لكنَّ الإنسانَ يحتاجُ بين حينٍ وآخرَ إلى بضعِ خطواتٍ كلَّ يومٍ - إلى الحمّام مثلاً - وما كانت تستطيعُ

ذلك، وتضطرُ إلى أن تستندَ إلى زوجها الطيّب، الذى كان يكادُ يحملها إلى حيثُ تُريد، وهى تشعرُ إزاءَ ذلك بخجلٍ شديدٍ، يروحُ يبددُه بكلمات طيبات، فيها الكثيرُ من العطفِ والحنانِ.. وكانَ لابد من الترددِ على الأطباءِ، الذين طالبُوا بصورِ أشعةٍ عدة وتحليلات مختلفةٍ ووصفوا لها الكثيرَ من الدَّواءِ ما بينِ شرابٍ وأقراص، كما وخَزَوا جِسمها بعشراتٍ من الحقن، إلا أنَّ كل ذلك مَا أجْدَى ولا أفاد، وزوجها الصابرُ يدعُو لها ويشجعُها ويقومُ مقامَها بين الأبناءِ الذين راحُوا يعتمدُونَ على أنفسهم قدرَ ما يستطيعُون.

وطال بها المرضُ، ولم تبرأ منه، وما تحسّنت صحتها ولا تقدّمت، وهى ليل نهارٍ تصلّى وتدْعُو، وتصومُ رافعةً أكفَّ الضراعةِ إلى الله سبحانه وتعالى أنْ يكلأها برحمتِه وعنايته، وأنْ يَمُنَّ عليها بالشفاء..

وذاتَ يومٍ، زارها هاتفٌ، لا تدْرى متى كان ذلك، ليلاً أم نهارًا، فالأمرُ يستوِى عندها. ويسألها أن تزورَ بيتَ الله فى عُمْره.. وخجلت المسكينةُ أن تصارحَ أحدًا بهذا الذى حدث.. إنما تعتمدُ على زوجها، أو بنيها، أو على العصَا إذا ما أرادت أن تتحركَ بضعةَ أقدامٍ، فما السبيلُ، إلى هذهِ الرحلةِ الطويلة، ثمَّ كيفَ لها أن

تطوفَ بالكعبةِ المشرَّفة، وهل تقدرُ على أن تهرول سبعة أشواطٍ، ما بين الصّفا والمروة؟!..

كتمت المرأةُ الطيبةُ ما جاءهَا به الهاتفُ، لكنَّ الأمرَ ثقُلَ عليها حتى أرهقها وأضناهَا، وأحسَّ كلٌّ من حوَلها أنها تخفِى شيئًا يَزيدها مرضًا وتعبًا، فلمَّا ألحُّوا عليها اضطرت إلى أن تصارحهم بالأمرِ مؤكدةً لهم أنَّ ذلك ليْسَ مطلباً لها، ولا هو رغبة منها، لكنه هاتفٌ لعلّه منَ السماء.

– ٣ –

كانت مفاجأة كبيرة وضخمة، أعدّها لها زوجُها كمال، إذ استيقظت ذاتَ صباحٍ، لتجدَ مقعدًا متحركًا قد أعدّه لها، كما اشترى تذاكرَ السّفر، وحَصَل على تأشيرةِ السّفر، واضطربَ الأبناءُ وتساءلوا:

- كيف تمضِى بهم الأمورُ فى غيبةِ أبيهم وأمهم؟

وتترددُ فى جنباتِ البيتِ عبارةٌ هادئة..

- كلُّه على الله..

وتسافرُ السيدةُ وفاءُ بصحبةِ زوجها كمال..

وشعرَا أثناءَ أداء العمرةِ بأنـه سبحانه وتعالى يُيَسِّرُ لهما الأمورَ بشكلٍ طيبٍ ورائعٍ، وأديا كلَّ الشعائرِ على أفضلِ وجه.. وكثيرًا ما كانت تلمحُ رجلاً يرقدُ عاجزًا قربَ الحرم، فتدعُو لـه .. وتقـول فيمـا بينـها وبـين نفسها :

- لقد قمتُ برحلةٍ طويلةٍ مكلّفة، وهاهو رجلٌ يكادُ يقيمُ فى نفسِ المكان ويعَانى ممّا أعَانى منه.. كان ذلك يخطرُ فى بالها ولا تصارحُ به زوجَها الذِى يدفعُ مقعدَهَا المتحرّكِ، وهما يرمُقَانِ الرجلَ الذِى يلُوذُ بالحرم، سائلينِ الله ثم الناسَ أنْ يُعينوه على محنته ومَرَضه..

وفى اليومِ الأخيرِ، للعمرةِ والزيارةِ، نزلت السيدةُ وفاءُ من فوق مقعدهَا المتحرك، وجلست إلى الأرض، وشخصَتْ ببصرهَا إلى الكعبةِ المشرّفة، ومن ورائها السماءُ الزرقاءُ الصافية، وراحَت تدعُو والدموع تسيل من عينيها.. وعندما حان موعدُ مُغادرة المكان امتدت يدُ زوجها كمال إليها، لكى يُعينها على العودةِ لمقعدِها، وإذا بها تقول له فى صوتٍ هادئٍ عميقٍ..

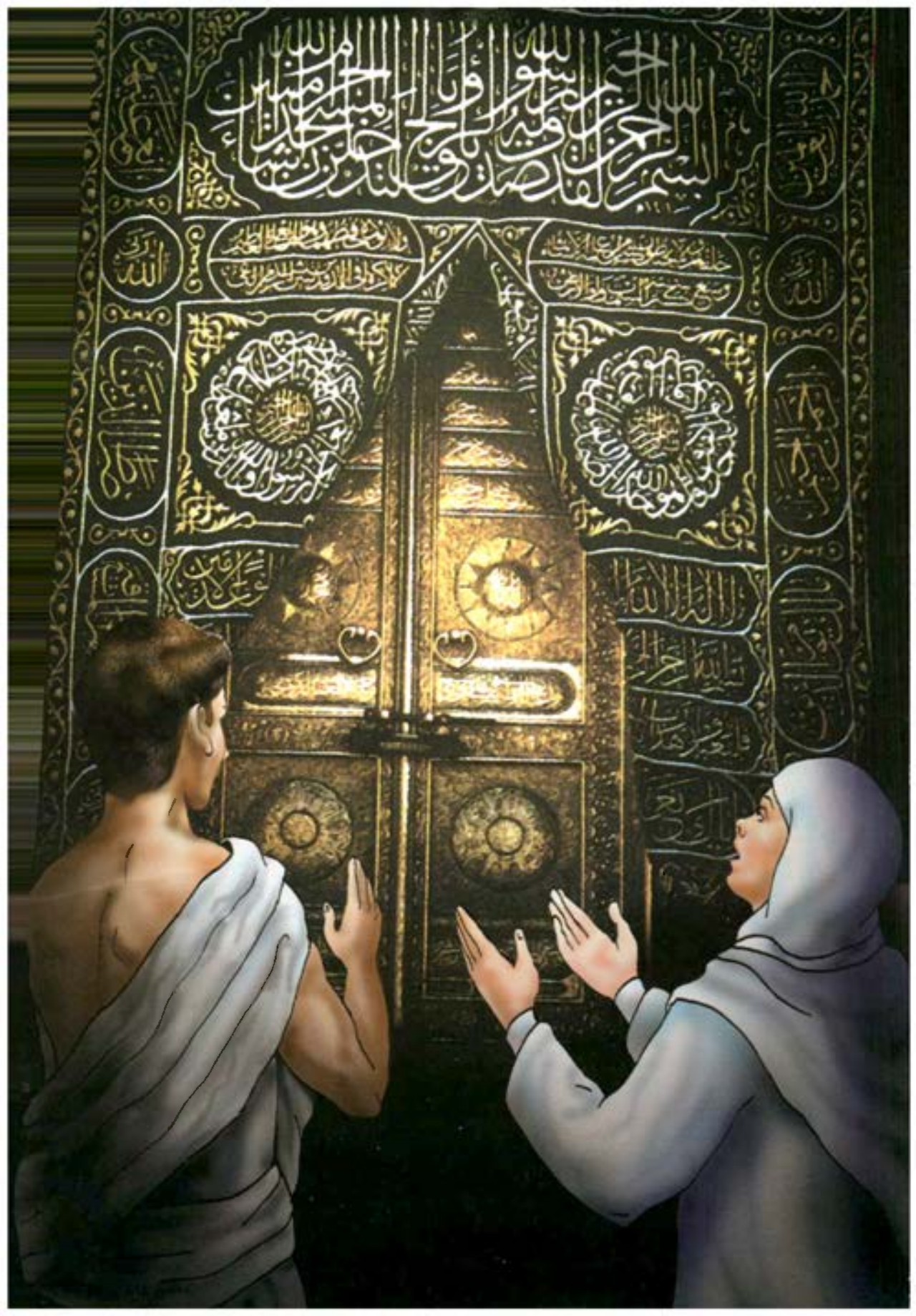

- شكرًا.. لا أظننى بحاجةٍ للمساعدةِ.

وذهلَ الرجلُ، لرؤية زوجته تقفُ على قدَميها، دونَ حاجةٍ حتَّى للاعتمادِ على يديها، إذ لم تلمسا الأرضَ الطاهرةَ. ونهضَتْ وراحَتْ تخطو فى هدُوء وثقةٍ وإيمانٍ.. ورويدًا رويدًا تسارعَت فى سيرها، وكمال يدفعُ المقعدَ المتحرك وبصره مركزٌ عليها، إلى أن اقتربا من بابِ الخروج.. عند الرجلِ الذى يرقدُ عاجزًا.

التفتَت وفاء لزوجها، وبإشارة صغيرةٍ للمقعدِ قالت:

- دَعْهُ له..

قادَ الزوجُ المقعدَ إلى قربِ الرجل، ووضعَ المقعدَ المتحرك، هامسًا:

- هذَا لك.

وغادرَا البيتَ الحرامَ عَائدينْ للوطنِ والبيتِ والأبناءِ حَامدينْ الله، شاكرَيْنِ فضْله.

***

رقم الإيداع	٢٠٠٢/١١٦٤٩
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6335-4

٧/٢٠٠٢/٣٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)